

المهزومُ ينتصر

كتب أديب تونسي معاصر للشابي يقول : إنه قرأ للشابي قصيدة في إحدى الصحف التونسية فسأل صاحب الصحيفة عن الشاعر فقال له الصحفي :

(إنه شاب من طلاب جامع الزيتونة أقلقني بمقطوعاته المكدسة بمكتبي يرجو نشرها ، وقد رأيت أن آخذ بخاطره فأنشر له هذه القطعة) .
والذي يروى هذه القصة هو الأديب التونسي محمد النبال .
وعندما كتب الشابي قصيدته المشهورة :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر

ثار عليه رجال الدين وأثاروا الصحف وجماهير الشعب ضده . فكيف يقول الشاعر : (لا بد أن يستجيب القدر) ... كيف يستجيب القدر لقوة الشعب ، بينما القدر لا يستجيب إلا لقوة الله ؟ لقد اعتبر رجال الدين (الشابي) كافراً ملحدًا ، وهاجموه هجومًا عنيفًا وحاربوه على نطاق واسع .
وعندما كتب الشابي قصيدته (صلوات في هيكल الحب) وقال في هذه القصيدة :

أنت أنشودة الأناشيد غناك إله الغناء رب القصيد
أنت قدسى ومعبدى وصباحى وريعى ونشوتى وخلودى
يا ابنة النور إننى أنا وحدى من رأى فىك روعة المعبود

عندما كتب الشابي هذه الأبيات وقف رجال الدين يقولون عنه إنه (وثنى) فهو يؤمن (بإله للغناء) ومعنى هذا أنه يؤمن بإله (للحب) وإله (للمطر) وغير ذلك مما لم تعرفه إلا العصور الوثنية سواء عند العرب أو عند الإغريق . ومعنى هذه التزعة الوثنية أن الشاعر مشرك لا يؤمن بإله واحد ، وهو بذلك ضد (الوحدانية الإسلامية) .

وبهذا التفسير أيضاً أشعل رجال الدين ثورة ضد الشابي واتهموه بالإلحاد والكفر .

وزادت ثورة العقلية القديمة عليه عندما أعلن رأيه فى الأدب العربى وخلاصة هذا رأى كما يقول الشابي نفسه :

(لا ينبغي لنا أن ننظر إلى الأدب العربى كمثل أعلى للأدب الذى ينبغي أن يكون ، بل ينبغي أن نعهده كأدب من الآداب القديمة التى نعجب بها ونحترمها ، ليس غير . أما أن يسمو هذا الإعجاب إلى التقديس والعبادة والتقليد فهذا ما لا نسمح به لأنفسنا ، لأن لكل عصر حياته التى يجياها ، ولكل حياة أدبها الذى تنفخ فيه من روحها) .

وقد اعتبر أصحاب العقلية القديمة هذا رأى امتداداً لإلحاد الشابي وكفروه لأنه لا يحمل التقديس الكامل للأدب العربى القديم الذى هو - فى نظر أصحاب هذه العقلية أدب له قداسة تشبه قداسة الدين .

ولم يكن الصراع والخصام فى حياة الشابي مقصوراً على الميدان الفكرى

وحده ، بل تعداه إلى الميدان العملى .

يقول الأستاذ أبو القاسم كروا (بذل الشاى نشاطاً اجتماعياً كبيراً، فقد قاد حركة طلاب (الزيتونة) التى كانت تهدف إلى إصلاح مناهج التعليم والإدارة فى الكلية وتزعم إضرابهم عن الدروس ، وترأس لجنّتهم وسير أعمالهم بوطنية أعجب بها الجميع) .

هذه خطوط عامة للحياة العنيفة التى عاشها الشاى ، حيث دخل معركة مع المجتمع والحياة فى كل ميدان ، ولقى من الإنكار والمعارضة ما يلقاه دائماً أصحاب الأفكار المتقدمة على العصر الذى يعيشون فيه .

ذلك كان بالأمس، أما اليوم فقد أصبح الشاى فى تونس وفى الوطن العربى كله مظهرًا قويًا من مظاهر الثورة السياسية لتحرير الوطن ، والثورة الاجتماعية لتحرير المرأة من القيود ولتحرير الإحساس من الجمود ، والثورة العقلية التى أخرجت الثقافة العربية من الذوبان فى الماضى والاقتصار على عبادة الأدب القديم والثقافة القديمة دون الالتفات إلى الثقافات العصرية الجديدة ، وكذلك أصبح الشاى مظهرًا قويًا من مظاهر الثورة الفنية التى جعلت من الشعر وسيلة رفيعة للتعبير عن التجارب الإنسانية ، لا وسيلة محدودة للتعبير عن المدح والهجاء والأفكار الخالية من العمق والمعنى الإنسانى الكبير .

إن (ثورة الشاى) قد انتصرت فى كل الميادين بل لقد تجاوز الواقع الراهن فى المجتمعات العربية المتقدمة ما كان يدعو إليه الشاى من أفكار وآراء .

ولكن الشاى أصبح الآن رمزًا جميلًا من رموز التحرر والانطلاق فى الحياة العربية . لقد انتصر الشاى بعد وفاته وكان يعانى الهزيمة فى حياته .

ولو ألقينا نظرة عامة على شعر الشاى من الناحية الفنية لوجدناه شاعرًا

جَمِلاً رَقِيقاً إلى حد بعيد ، فالقاموس الشعري الذى ينتقى منه الشابي ألفاظه يعتبر من أنقى القواميس الشعرية فى أدبنا العربى الحديث والقديم ، إن ألفاظه رقيقة شفافة كأنها بلور مضىء أو كأنها نجوم تحولت إلى كلمات ، قليلاً ما نجد فى قصائده ألفاظاً خشنة ، أو ألفاظاً صعبة ، أو ألفاظاً خالية من الأناقة . أما موسيقاه الشعرية فهى أيضاً موسيقى نقية ، سهلة ولكنها عميقة ، متلائمة دائماً مع الأحوال النفسية التى يعبر عنها ... متلائمة مع أرفع مستوى لهذه الأحوال النفسية . والسحر الذى يجذبنا إلى عالم الشابي الفنى يعتمد كثيراً على هذه الموسيقى العذبة التى تحس بها فى شعره فكأننا نسمع جوقة من العصافير الرقيقة تغنى فى روض ساحر من رياض الطبيعة التى طالما أحبها الشابي ، وأقام صلوات قلبه فى معبدها الكبير . إن (الإحساس الموسيقى) عند الشابي هو بلا شك من أعظم مواهبه ، بل من أعظم (الأحاسيس الموسيقية) التى عرفها أدبنا العربى كله .

وهذه الخصائص الفنية قد شجعت دراسة من النقاد ، ويكفى أن نقرأ بعض القصائد المعروفة للشابي حتى ندرك على الفور سحر ألفاظه ونقاءها ، وعذوبة موسيقاه ، وكثرة لوحاته الفنية عن الطبيعة والإنسان .

على أن السؤال الذى ينبغى أن نجيب عليه قبل أن نطوى صفحات هذا الكتاب هو : ما موقف الذوق العربى المعاصر من شعر الشابي ؟ ... إننا نطرح هذا السؤال بعد وفاة الشابي بما يزيد على أربعين سنة .

ليس من الإنكار لقيمة الشابي ولا من التجنى عليه أن نقول إن الذوق العصرى قد أصبح الآن أكثر خبرة بالحياة ، وأعمق تجربة فيها ، مما كان عليه الشابي ، كما أن التجارب الإنسانية العنيفة التى مر بها الوطن العربى ومر بها الإنسان العربى منذ وفاة الشابي (سنة ١٩٣٤) ، إلى اليوم كانت من القوة والعنف بحيث جعلت معنى الخير والشر أعمق وأكثر تركيباً من الصورة التى

رآها وأحسها الشاب ، إن الإنسان العربي المعاصر إنسان قد عصرته التجارب ، وذاق من ألوان المأساة صوراً لم تخطر ببال الشاب في سنه المبكرة وعالمه الغض البسيط ، ومن هنا أصبح الذوق العربي الآن ينظر إلى الشاب كما ينظر الإنسان إلى صباه النقي الطاهر الذى لم يتلوث بالتجارب الكثيرة المعقدة ، ولم تتجاذبه عوامل متناقضة متصارعة .

كان الشاب مثاليًا فى كل شىء : فالمرأة عنده خير كامل وطهارة كاملة ، ونور شفاف يهبط على حياة الإنسان فيحمل إليه كل معانى السعادة الروحية العميقة ، والطبيعة أيضاً عالم مثالى نقى ، تمت صياغته بصورة خلصته من النواقص والشوائب ، وحتى الشر أيضاً عند الشاب هو شر مثالى مطلق متطرف .

لم يعرف الشاب أبداً الأعماق التى عرفها (المزاج الواقعى والذى ينظر نظرة إنسانية إلى الحياة لا نظره (ملائكية) مبنية على الخيال ، فالنظرة القديمة إلى المرأة على أنها كائن حسى تابع للرجل نظرة خاطئة ، ولكن النظرة المقابلة أيضاً والتى تعتبر المرأة كائناً أعلى من الكائن الإنسانى ، كائناً شفافاً يوزع السحر ويشع منه النور ، هذه النظرة أيضاً ليست صحيحة بصورة مطلقة ، فالمرأة كائن إنسانى ، وعضو فى المجتمع تستحق كل ما للرجل من حقوق ، وينطبق عليها ما ينطبق على الرجل من مقاييس الخير والشر .

إن المشكلة عند الشاب هى مشكلة التعميمات و (المواقف المتطرفة) مما لا تستريح إليه النفس الإنسانية التى تعمقت فى تجارب الواقع ، فأى نظرة تدعو إلى أن المرأة هى خير كلى كامل وأنها كذلك بلا استثناء فى جميع المواقف والأحوال؟! مثل هذه الفكرة العامة المطلقة إنما هى فكرة تفوح منها رائحة الطفولة الشعورية ، وبساطة الإحساس ... إنها فكرة لم تصل إلى درجات أبعد من العمق الذى يدرك (حالة الصراع) بين الكمال والنقص ، بين الخير

والشر في واقع الإنسان : رجلاً كان أو امرأة .

ومثل هذه النظرة تنطبق على بقية الأفكار الرئيسية التي عبر عنها الشابي ، حيث يشترك في هذا النوع من التعبير مع جميع الشعراء الرومانسيين الأصلاء في العالم .

ولنأخذ مثلاً صغيراً يمكن أن نقيس عليه . يقول الشابي في قصيدته (أيتها الحاملة بين العواصف) :

أنت لم تخلقى ليقربك الناس ولكن لتعبدى من بعيد ..

وهذه الفكرة الجميلة المثالية عن المرأة هي الفكرة التي يعيش بها الشابي على الدوام . وهذه الفكرة بالطبع هي نوع من نبيل الخيال ، وروعة الخيال ، وليس فيها نبيل الواقع ، ولا روعة الواقع ... ذلك الواقع الذي لفح الإنسان العربي الجديد بتجاربه العديدة ، فأصبح ينظر إلى هذا النوع من الأحاسيس على أنه نوع من أحاسيس (الصبا) ومشاعره الأولى .

ذلك هو السر في أن الذوق المعاصر قد تجاوز المشاعر والتجارب التي كان الشابي يعبر عنها ، وإن لم يكن تعبير الشابي عنها قد انتهى فما زال له بريقه وما زالت له روعته ، ففيه من الصدق والشوق إلى الحياة وأصالة الموهبة الفنية ما يضمن له البقاء والخلود ، وما يجعل منه شاعراً نادراً لا يتكرر كثيراً ... كل ذلك رغم (عدم النضج) بالنسبة إلينا في تناوله لموضوعاته والنظر إليها نظرة مثالية عامة غير واقعية لا تدرك التفاصيل الدقيقة والجزئيات المختلفة ، وهي الشيء الذي لم يكن بالإمكان الوصول إليه في عصر الشابي .